د. مراد غالب

الباحث عن الحقيقة !!

obeikandl.com

obeikandl.com

* همس سيمينوف فى أذنى «سيضربونكم» قبل عدوان ١٩٦٧ بشهر كامل!

* بعد إغلاق تيران كانت موسكو بادية الانزعاج وأبلغتنا بضرورة تفويت فرصة لجوء إسرائيل لحل عسكرى!

* شمس بدران نقل إلى القاهرة انطباعاً غير دقيق عن زيارته لموسكو قبل العدوان مستغلا كلمة مجاملة من الماريشال جريتشكو!

* فى ٦ يونيو جاءتنى من مصر طلبات يستحيل على السوفيت تنفيذها مثل اشتراك طيارين روس فى المعارك!

* قال جريتشكو: «لو أطلقت كل دبابة مصرية طلقة واحدة لتغيرت نتيجة حرب ١٩٦٧»!

* اكتشف المواطنون السوفيت أن الكثير من نجوم المجتمع يهود بعد ما حشدهم الحزب الشيوعى فى اجتماع لمحاولة احتواء الحملة ضد العلاقات العربية - السوفيتية.

* كان جروميكو يعطى الحل السياسى أولوية أولى بينما كان جريتشكو ميالا للثأر لكرامة العسكرية السوفيتية!

* أكد الفريق محمد فوزى أن مصر وسورية كانتا متفوقتين عسكرياً فى عام ١٩٧١!

* أرادت إسرائيل بسرقة الرادار المصرى وضرب نجع حمادى أن توجه رسالة سيكولوجية إلى موسكو!

* فى زيارته السرية إلى موسكو قال عبد الناصر: «سأستقيل إذا لم تجب مطالب التسليح. فليس عبد الناصر الذى يقبل التفاوض مع إسرائيل»!

* تغيرت لهجة السادات مع السوفييت من النقيض إلى النقيض بمجرد أن أصبح رئيساً للجمهورية.

* فوجئ السادات وغضب حين طلب بادجورنى عقد المعاهدة مع مصر فقلت له: «ياريس هذا امتحان».

* قال لى أحد أعضاء المكتب السياسى للحزب الشيوعى السوفييتى: «لماذا حدد السادات ٧ يوليو ١٩٧٢ موعداً لطرد الخبراء.. أهو عيد قومى فى مصر؟».

* بعد قرار طرد الخبراء استقبلنا بريجنيف فى الكرملين والدموع فى عينيه وقال: «ماذا فعلنا بكم حتى تتسببوا لنا فى كل هذا.. لقد كنا نخفى موتانا على الجبهة فى مصر عن أعين الشعب الروسى حتى نستمر فى أداء دورنا تجاهكم»!

* عندما طرد السادات الخبراء، قال لى الفريق صادق: «الدور علىَّ»!.

* وافق السوفييت قبل طرد الخبراء بثلاثة اشهر على منح مصر سلاحاً للردع هو صواريخ «سكود»!.

* أعطى رئيس الأركان السوفييتى للسادات صور الاستعداد الإسرائيلى للثغرة قبل حدوثها!.

* قال لى بعض المسئولين الأمريكيين: «كيف أحست بمجرد أن عينك السادات وزيراً للخارجية أنه ينوى إنهاء العلاقة مع السوفييت»؟!.

(يناير ١٩٩٢)

فى الثامنة من صباح السادس من يونيو ١٩٦٧، كان الدكتور مراد غالب سفير الجمهورية العربية المتحدة فى موسكو، يخطو - فى عجالة - عبر البهو المؤدى إلى الباب الخارجى لمبنى السفارة المصرية العتيق القابع فى شارع «الجرتسينا»، المسمى باسم أحد كبار الكتاب السوفيت.

أمام الدرج توقفت سيارة داكنة سوفيتية الصنع من طراز «شايكا» وهو النوع الذى أصبحت السفارة المصرية تستخدمه، بعد العربات (الزيم) وهى سوفيتية أيضاً، ثم العربات الأميركية (شيفروليه)، وأخيراً (شايكا) السوفياتية واسمها يعنى (سيجال).

دخل الدكتور مراد إلى السيارة التى يرفرف على مقدمتها علم الجمهورية العربية المتحدة بألوانه الثلاثة الأحمر والأبيض والأسود، وتتوسطه نجمتان ترمزان إلى الوحدة المصرية - السورية التى كانت.

ارتسمت علامات القلق والهم العميق على وجه الدكتور مراد، وسرح ينظر عبر زجاج نافذة السيارة وكأنه لا يعرف موسكو، العاصمة التى أمضى فيها أربعة عشر عاما، ديبلوماسياً يمثل بلاده فى أهم الحواضر العالمية التى تتعامل معها.

لم يلتفت مراد غالب إلى منظر النسوة العجائز، اللاتى يقمن بأعمال النظافة فى شوارع العاصمة السوفيتية، ولا منظر البراعم الجديدة وهى تشق طريقها للحياة بإصرار فوق أفرع أشجار المدينة - كعادتها - فى يونيو من كل عام، ولم يلحظ الجندى الذى أفسح الطريق بحزم للسيارة الديبلوماسية وقد ارتسم على وجهه تعبير جليدى لاحياة فيه.

مرت الدقائق الأربع التى استغرقتها السيارة «الشايكا» فى قطع الطريق بين مبنى السفارة المصرية ومبنى الكرملين العتيد -الكائن على بعد كيلو مترين- على الدكتور مراد وكأنها أربعة أعوام، كانت صور كثيرة تتراءى وتتتابع فى مخيلته عن أحداث الأسبوعين السابقين.

كلمة سيمينوف نائب وزير الخارجية السوفييتى التى أسر بها فى أذن الدكتور غالب قبل شهر كانت تطن فى رأسه كنحلة لا تهدأ ولا تعتزم الرحيل:

«سيضربونكم.. الاحتكارات النفطية العالمية غير راضية عن سلوككم فى المنطقة.. سيضربونكم»!!

عبرت السيارة أمام المبنى التاريخى للكرملين بينما كانت الشمس تعكس أشعتها بحدة على قبابه المذهبة.. وتوقفت الشايكا أمام درج يؤدى إلى مبنى إدارى مهيب.

وفى دقيقتين كان أحد الموظفين يفتح باباً كبيراً من خشب الجوز ليجد الدكتور غالب نفسه أمام أليكسى كاسيجن رئيس وزراء الاتحاد السوفييتى، الذى قابله بوجه ممتقع تختلط فى ملامحه مشاعر الغضب والحزن.. وبصوت واهن تمتم: «دكتور غالب.. لقد سقطت العريش صباح اليوم»!

. . . . . .

ولنبدأ حوارنا من البداية..

obeikandl.com

د. عمرو عبد السميع: مازالت هناك فصول غير واضحة فى قصة العلاقات المصرية - السوفياتية.. وبالذات الفصل الخاص بالدور السوفييتى بعد حرب ١٩٦٧، وذلك المتعلق - أيضاً - بالخلافات بين السادات وموسكو؟

الدكتور غالب.. هل آن الأوان لتروى لنا بعض ما تعرفه عن هذين الفصلين؟

د. مراد غالب: قبل ٦٧، شهدت حركة تحرير الشعوب انحساراً كبيراً وبالذات فى عامى ٦٥ و١٩٦٦، واختفى من فوق خشبة المسرح السياسى زعماء هم نجوم ورموز هذه الحركة مثل كوامى نكروما فى غانا واحمد بن بلله، فى الجزائر وأحمد سوكارنو فى أندونيسيا.

أما عن مصر فكانت علاقاتها مع الولايات المتحدة الأميركية قد بدأت فى التدهور منذ ١٩٦٥، وبدا الرئيس ليندون جونسون، وكأنه قد عقد العزم على المضى بهذا التدهور إلى نهايته.

عند هذه النقطة (المفصل) كان الهجوم قد بدأ على حركة تحرير الشعوب وبالتالى على الوجود السوفييتى فى العالم الثالث، وأضيف إلى هذا تصاعد القصف فى فيتنام وحصار الصين إلى حد كبير.

ووسط هذه الظروف شهدت دمشق تغييراً سياسياً مهماً، وصفه المراقبون بأنه جنوح إلى اليسار، وتولت الحكم ترويكا سورية بزعامة نور الدين الأتاسى.

وبعيداً.. بعيداً عن الشاطئ المطل على الأطلنطى ، كان هناك فى الولايات المتحدة من يفكرون -بدأب- لضرب نوعية الأنظمة التى أصبحت موجودة فى

الشرق الأوسط، مثل النظام المصرى والنظام السورى، كجزء من تصفية حركة تحرير الشعوب وضرب النفوذ السوفييتى فى المنطقة.

وسار السيناريو الأميركى فى طريقه المرسوم.. قطع المعونات عن مصر، ثم شروط أربعة قدموها بواسطة سفيرهم فى القاهرة إلى الرئيس عبد الناصر، وأعادوا تقديمها بواسطة مبعوثين كثيرين.. وتشمل الشروط الأربعة:

١- أن تقبع مصر داخل حدودها وتكف عن التحرك باسم القومية العربية.

٢- تحديد حجم وتسليح القوات المسلحة المصرية.

٣- حق التفتيش على المنشآت الذرية المصرية.

٤- الصلح مع إسرائيل.

وتتابعت الأحداث، لتبدأ بتحرش إسرائيل تجاه سورية، ثم معركة إسقاط الطائرات الشهيرة فوق سورية، وأخيراً الحشود الإسرائيلية فى مواجهة الجولان.

قبل هذا كله وأثناءه كان السوفييت دائمى التحذير لنا من نوايا غربية عدوانية تجاهنا.

د. عمرو عبد السميع: هل أبلغوكم بهذا رسميا؟

د. مراد غالب: فى مثل هذه الأمور لا يلجأ السوفييت إلى الطرق المتعارف عليها فى الإفصاح عما تعتقده قيادتهم العليا، ولكنهم يعمدون إلى تمرير الرسائل غير الرسمية.. وأذكر - قبل شهر من عدوان ١٩٦٧ - أن سيمينوف نائب وزير الخارجية السوفييتى انتحى بى جانباً فى إحدى حفلات الاستقبال فى مقر سفارة عربية فى موسكو، وهمس فى أذنى: «انتبهوا.. سيضربونكم.. الاحتكارات النفطية العالمية غير راضية عن سلوككم فى المنطقة.. سيضربونكم».

ولفت انتباهى بعد هذه الواقعة أن سيمينوف تعمد تكرارها أمام عدد كبير من

المبعوثين المصريين، والموظفين الذين كان يلقاهم بكثرة، فقد كان لمصر فى موسكو مكاتب كثيرة أحدها للسد العالى، والآخر للعلاقات التجارية، ومكتب للمشتروات العسكرية، ومكتب للتصنيع، يشرف على كل المشاريع الصناعية المصرية - السوفيتية، بالإضافة إلى مكاتب الملحقين العسكريين، باختصار كان لمصر مجلس وزراء مصغر فى موسكو، وكان إبلاغ الرسائل فى كثير من الأحيان يتم بشكل غير مباشر كما فعل سيمينوف.

تتابعت - بعد ذلك - الأحداث وبدأت الحشود الإسرائيلية على الحدود السورية، ثم أغلقت مصر مضايق تيران، وجاء إلى موسكو السيد شمس بدران وزير الحربية موفداً من الرئيس عبد الناصر، والتقى بكاسيجن رئيس الوزراء، والماريشال جريتشكو وزير الدفاع، وفى هذا الاجتماع أبدى السوفييت انزعاجاً شديداً من إغلاق مضايق تيران، وأخبروا بدران أن على مصر أن تحافظ على مكاسبها، وتنجح فى تفويت الفرصة للتدخل العسكرى، بأن تتراجع عن خطوة إغلاق المضايق وتحريك قواتها إلى الحدود، كان كاسيجن هو الذى يوجه هذه الملاحظات - مباشرة - لشمس بدران، حتى أن الماريشال جريتشكو لاحظ أن جو الزيارة كان كئيباً ربما أكثر من اللازم، وقد يكون محبطاً للمصريين، فقال لشمس بدران، وهو يقوم بتوصيله إلى باب الطائرة: «نحن معكم»، وعاد شمس إلى القاهرة ليتجاهل كل ما سمعه من كاسيجن، وينقل إلى القيادة الانطباع الهوائى الذى تركته فى ذهنه عبارة جريتشكو المجاملة عند باب الطائرة!

(يسرح طويلاً).. عموماً كانت فترة السنتين اللتين سبقتا عدوان يونيو، غريبة جداً فى تاريخ مصر، وترك النزاع والصراع بين مؤسسة الرئاسة بقيادة عبد الناصر، والمؤسسة العسكرية بقيادة عبد الحكيم عامر، آثاراً بالغة السوء على طريقة إدارة الأزمات، وإدارة العلاقات الدولية، وحتى أثناء العدوان كادت تحدث قطيعة بين مصر والسوفيت بسبب أن القيادة العسكرية التى فقدت أعصابها، أرادت تحميل السوفييت كل مسئولية الكارثة، وعلى الرغم من ذلك جاءتنى فى السادس من يونيو فى الصباح الباكر - قبل اجتماعى بكاسيجن - قائمة طلبات

مستحيلة التنفيذ يرجح أن القيادة العسكرية كانت وراءها، مثل طلب باشتراك طيارين سوفيت فى المعركة، وبالطبع كانت نتيجة تقديم هذه الطلبات إلى رئيس الوزراء السوفيتى، أن استمعت إلى محاضرة طويلة عن أن دور موسكو ينحصر فى مراقبة الأسطول السادس الأميركى فى البحر المتوسط والتحرك إلى جواره لمنعه من التدخل فى العمليات.

إلا أن كاسيجن لم تفته المناسبة - وهو يوجه حديثه - لى - بحزن وأن يتساءل عن حقيقة الاستعدادات المصرية للحرب، وعن هذا الكلام الذى استمع إليه طوال أسبوعين من الجانب المصرى، ختاماً بما سمعه شخصيا من شمس بدران وزير الحربية، والذى يفيد أن مصر مستعدة للمواجهة، وما زالت صورة كاسيجن ترتسم فى ذهنى وهو يهز رأسه مطرقاً إلى لوح البللور الذى يغطى مكتبه ويتساءل: «أى استعداد»!

د. عمرو عبد السميع: ألا ترى معى أن لهجة التوبيخ السوفييتية - هذه - بدأت مبكرا أكثر من اللازم؟

د. مراد غالب: لم يكن توبيخا ولكنه تعبير عن تألمهم الشديد مما يجرى، كانت الهزيمة المصرية، بشكل غير مباشر هزيمة لهم.

عاصفة من التساؤلات اجتاحت موسكو بعدما انقشع الدخان، وظهرت نتيجة الحرب، وما زلت أذكر مقولة جريتشكو لى -فى التعليق على نتيجة الحرب- والتى رددت صداها أعمدة الكرملين الرخامية:

«لو أن كل دبابة مصرية أطلقت طلقة واحدة لتغيرت نتيجة الحرب»!!

لقد عانت القيادة السوفييتية من حملة انتقادات عنيفة داخل موسكو بمقدار ما عانينا نحن من انتقادات القيادة السوفيتية.

كان الجميع يتساءلون: «ما هؤلاء العرب الذين نتحالف معهم؟».

د. عمرو عبد السميع: فى مجتمع تعبوى MOBILIZED مثل الاتحاد السوفييتى لا أعتقد إلا أن مثل هذا الاتجاه كان مدفوعاً بقوة ما، هل توافق؟

د. مراد غالب: ما أرويه لك، هو ما حدث بحذافيره، الهجوم على القيادة السوفييتية بعد حرب ٦٧، كان بشعاً، حتى من داخل الحزب الشيوعى نفسه، ونشطت الدعاية الصهيونية واليهودية بشكل كبير وغير مسبوق أيضا داخل الاتحاد السوفيتى.

حتى سائقو التاكسى كانوا يرفضون ركوب أى عربى، لأنهم يرون أن العرب كحلفاء خذلوهم خذلاناً كبيراً، وشاركوا فى تحطيم سمعة العسكرية السوفيتية.

وما كان من القيادة السوفييتية سوى أنها أنزلت الحزب بقياداتها، ووزارة الخارجية بقيادتها لجمع يهود الاتحاد السوفييتى فى مؤتمر كبير عقد فى أغسطس ١٩٦٧، لكى يشرحوا لماذا انهزم العرب؟ وما هى أسباب حرص القيادة على استمرار التحالف مع العرب؟!

وقد أصاب هذا الاجتماع المواطنين السوفييت بالذهول، لأنهم اكتشفوا - للمرة الأولى - أن الكثير ممن يعتبرهم المجتمع السوفييتى نجوماً ورموزاً هم من اليهود، شخصيات مهمة وخطيرة، مثل «بليس كايانا» راقصة الباليه المعجزة، و«ديميشتسل» نائب رئيس وزراء الاتحاد السوفيتى، ومجموعة من أكبر أطباء وكتاب وفنانى روسيا.

وفى هذا الاجتماع أطلقت التجمعات اليهودية عدداً من النظريات الغريبة، وبدا أن الاتحاد السوفييتى - من أقصاه إلى أقصاه - يعيش حالة مساجلة سياسية حول نتيجة الحرب العربية - الإسرائيلية، كان اليهود يقولون: إن المصريين لم يحاربوا أبداً، وحتى - تاريخياً- كانت انتصاراتهم العسكرية على يد المماليك، أو على يد محمد على، بينما كان الشعب المصرى منفذاً فقط!!

ونظريات أخرى- ما أنزل الله بها من سلطان - تتردد فى جنبات هذا الاجتماع وفى اجتماعات أخرى تلته.

هذا بينما بدأت فى مصر حملة تمثل جانباً آخر من جوانب المساجلة، وتتحدث عن بلادة السلاح السوفيتى وتخلفه، وتنتقل الكرة إلى الملعب

السوفييتى فتسمع من يقول: إن الفيتناميين يقاتلون بالسلاح الروسى، والكوريين حاربوا بأسلحة سوفيتية، والصينيين تصدوا لجيوش الحلفاء بقيادة الجنرال ماك آرثر وأوقفوها حتى أنه فكر فى ضرب الصين بالقنابل الذرية.

ورأيت أن الأمور تتطور فى غير صالح العلاقات المصرية - السوفيتية، وبخاصة أن ليس لدينا مصدر آخر للحصول على السلاح، فكتبت مذكرة إلى رئاسة الجمهورية فى مصر أطالب فيها بوقف هذه الحملات، بينما كانت القيادة السوفييتية تحاول - من جانبها - احتواء الموقف فى موسكو لأنها تعى مصالحها الحيوية فى المنطقة، إلا أن الحركة السوفييتية ظلت محكومة بمعادلة مؤداها السعى فى كل المجالات - سياسياً وعسكرياً - بما لا يؤدى إلى مواجهة أميركية - سوفيتية.

د. عمرو عبد السميع: منذ الحرب وحتى وفاة الرئيس عبد الناصر دارت العلاقات بين مصر والسوفيت فى أطر آلية طرفها الأول مطالبات مصرية بالسلاح، وطرفها الثانى ردود سوفيتية إيجابية أو سلبية على هذه المطالبات، ما هى الفكرة التى كانت تحكم طبيعة الاستجابة السوفييتية لمصر فى هذه المرحلة؟

د. مراد غالب: كان السوفييت يكررون - وبالذات جريتشكو- أن هناك حاجة إلى وقت بين هزيمة عسكرية، ومواجهة عسكرية أخرى يتحتم الانتصار فيها.

وكانوا متخوفين من أى هزيمة أخرى، فأى هزيمة ثانية هى - بالنسبة لهم - كارثة لا يمكن تداركها.

وبالتالى أعطى السوفييت بعد ١٩٦٧ للحركة السياسية والديبلوماسية أولوية أولى، ولذلك فى كل جلسات المحادثات الرئاسية مع السوفيت، كانت الترويكا الروسية (بريجنيف- بادجورنى -كاسيجن) تستمع إلى طلبات عبد الناصر على الساحة العسكرية، ثم يطالبون بأن يبدأ الكلام - أولاً - على الساحة السياسية، ويرون أنه وفقاً لتقدير الموقف على الساحة الديبلوماسية، ستكون استجابتهم للطلبات العسكرية.

وربما كان أندريه جروميكو وزير الخارجية السوفييتى هو أكثر الميالين إلى الحل السياسى، بينما كان جريتشكو ميالاً إلى الحل العسكرى باعتباره يمثل ثأراً للعسكرية السوفييتية الجريحة.

على أى حال مضت عمليات تزويد العرب بالأسلحة فى شكل دعم قدراتهم الدفاعية، ثم تطوير هذه القدرات لتصبح هجومية حتى أن الفريق أول محمد فوزى وزير الحربية المصرى السابق قال لى: «إن مصر وسورية أصبحتا متفوقتين من الناحية العسكرية عام ١٩٧١».

وفى هذا السياق كان الصمود المصرى المبكر فى معارك رأس العش، ثم فى إغراق المدمرة إيلات يقابل بتقدير كبير فى موسكو، بما أشعر إسرائيل بأن هدفها بعد الحرب مباشرة ينبغى أن يكون توجيه رسالة سيكولوجية إلى الاتحاد السوفييتى هدفها إفقاد الثقة فى مصر كقوة عسكرية، ومن ثم كانت عملية سرقة الرادار المصرى من منطقة البحر الأحمر، ثم تسلل طائرة إسرائيلية إلى نجع حمادى فى صعيد مصر، وضرب قناطرها هى عمليات مدروسة تستهدف نفسية السوفييت أكثر مما تستهدف نفسية المصريين.

د. عمرو عبد السميع: أدى اختلاف زاوية الرؤية إلى ما يشبه الصدام بين عبد الناصر والسوفيت فى جلسات المحادثات ومنها زيارته الأخيرة، هل لك أن تحكى بعض فصول من هذا؟

د. مراد غالب: كانت زيارات عبد الناصر للاتحاد السوفييتى - عموما - والتى بدأت من مايو ١٩٥٨ وانتهت بزيارته فى يوليو ١٩٧٠، تتحول إلى ساحات مناقشة للمطالب المصرية من كل الزوايا، وكثيراً ما شهد مقر إقامة الرئيس المصرى - الذى كان الكرملين فى أول زيارة، ثم بيوت الضيافة على تلال لينين المطلة على جامعة موسكو فى الزيارات الأخرى - خلية عمل تجهز الأوراق المصرية التى تطرح فى أول جلسة بعد ذلك فى قاعة الاجتماعات الكبيرة بالطابق الثانى فى الكرملين.

أما عن الاصطدام فربما كان منه ما أفصح عنه الرئيس عبد الناصر فى زيارته الأخيرة حين غضب من تباطؤ السوفييت فى الموافقة على إمداده بما سمى وقتها سلاح الردع حين قال: «إذا سارت الأمور على هذا النحو.. سأستقيل.. فليس عبد الناصر الذى يقبل التفاوض مع إسرائيل»!!

وبعدها أمدت موسكو مصر بأربع طائرات (ميج ٢٥) تعمل عليها أطقم سوفيتية، وكذلك محطات التشويش الإليكترونية على الرادارات الإسرائيلية.

وفى هذه الزيارة أيضا أبلغ عبد الناصر موسكو بأنه سيوافق على مبادرة روجرز ولم تكن هذه وسيلة للضغط على السوفيات تعبيراً عن الصدام، كما يحاول البعض أن يصورها، ولكنها كانت عملاً تكتيكيا ذكياً يُمكن مصر من تحريك حائط دفاعاتها الجوية إلى شاطىء القناة، واستكمال تدريب الأطقم المصرية لتحل محل الأطقم السوفييتية العاملة عليها.

أما أخطر زيارات عبد الناصر إلى موسكو فكانت الزيارة السرية التى قام بها فى يناير من عام ١٩٧٠، وفيها قبل السوفييت أن يوجدوا بأنفسهم كخبراء مع أسلحة الدفاع الجوى التى منحوها لمصر.

ولقد تابعت - بنفسى- بعد هذه الزيارة حجم الجهد الديبلوماسى الذى اضطرت موسكو إليه مع أميركا والغرب لشرح موضوع ذهاب الخبراء إلى مصر.

د. عمرو عبد السميع: هل حدث تأخير فى الجداول الزمنية لاستلام مصر للسلاح السوفيتى؟

د. مراد غالب: كانت متابعاتى لهذا الأمر بناء على تكليفات شخصية من الرئيس عبد الناصر، ولم أشعر أن هناك تأخيراً فى شىء.

د. عمرو عبد السميع: هل شعرت - فى وقت من الأوقات- أن عبد الناصر كان متعجلاً أكثر من اللازم؟

د. مراد غالب: فى مراحل كثيرة كان متعجلاً، ويريد أن يسرع بالعملية

العسكرية، على حين كانت القيادة السوفييتية مترددة، وخائفة من الاندفاع فى هذا الاتجاه، بما يحجب إمكان التسوية السياسية.

د. عمرو عبد السميع: هل تمايزت النظرة إلى العلاقات مع مصر داخل عناصر القيادة السوفييتية نفسها؟

د. مراد غالب: القيادة السوفييتية - كلها - كانت تنظر إلى العلاقة مع مصر باعتبارها واحدة من الأسس الاستراتيجية للسياسة السوفيتية، ولكن الرؤى كانت تتمايز بحسب موقع كل فرد داخل القيادة السوفيتية، فكاسيجن - مثلاً- رجل تكنوقراطى مؤمن للغاية بأهمية العلاقات الأميركية - السوفيتية، أما بريچنيف فهو الذى كنت الجأ له فى أى طلب عسكرى لتلافى تأثيرات السياسيين مثل جروميكو، وحتى حين كنت أقصد الماريشال جريتشكو بطلب جديد كان ينصحنى بالحصول على موافقة بريجنيف مباشرة!

د. عمرو عبد السميع: كيف كان تصرفك إزاء الاحتكاكات التى تولدت داخل الجيش المصرى مع الخبراء السوفيت؟

د. مراد غالب: كان لدى السوفييت- فى البداية - تقدير متواضع لقدرات العسكرية المصرية وولد هذا قدرا كبيراً من الاحتكاك مع الضباط والقادة المصريين، وكان السوفييت فى هذا - متأثرين إلى حد كبير بحملة المساجلات الضخمة التى تعرض لها المجتمع الروسى بعد الهزيمة العربية وكذلك حملة المنظمات اليهودية على العسكرية المصرية.

وقد تدخلت لدى الجانبين (المصرى والسوفييتى) لوقف هذا الاحتكاك وكان لدى جريتشكو حرص كبير عليه إلى أن تم احتواء الموقف وبدأ السوفييت يدركون - مع الوقت - حقيقة القدرة العسكرية للمقاتل المصرى.

. . . . . .

و«عبر شرفة منزله الزجاجية المطلة على ملاعب الغولف بنادى الجزيرة الرياضى المصرى بحى الزمالك (حى الارستقراطية المصرية) سرح الدكتور مراد غالب طويلاً قبل أن يصب لنا الشاى فى طاقم من البورسلين الإنجليزى الأبيض

المنقوش بورود صغيرة وردية وخضراء. بينما غطت الأريكة التى نجلس عليها مفارش شعبية روسية بألوان حمراء وبيضاء وسوداء، وعلت الحائط خلفنا ثلاث أيقونات أرثوذكسية روسية، وبدا الرجل وكأنه يتذكر أمراً مؤلماً، فقد كان على وشك أن يبدأ معنا مرحلة جديدة من حواره الطويل عن علاقته بالسادات وعلاقة السادات بالسوفييت.

همس الدكتور مراد: «بعد أن أصبحت وزيرا للخارجية عام ١٩٧١ استدعانى ذات مرة إلى منزله، ففوجئت بوجود السفير السوفييتى سيرجى فينوجرادوف، وإذا بالرئيس السادات يقول للسفير: لقد عينت رجلكم وزيراً للخارجية، وفزعت من هول الموقف، لكننى انتظرت حتى انصرف السفير وقلت للرئيس: لا ينبغى - بروتوكولياً - أن يستدعى وزير الخارجية ليحضر اجتماعاً مع سفير، ثم كيف يمكن فهم حكاية (رجلكم) هذه، فهذا أمر لا يحترمونه ثم إنه يغضبنى.. فضحك السادت قائلاً: «إنكم معتادون على طريقة عبد الناصر، ولكن كل شيخ وله طريقة!!».

ويضيف مراد غالب: «ربما كانت هذه الحكاية مثلا على استخدام السادات لتكتيكات صغيرة وكثيرة، لم يكن يعلم بحقيقتها سواه فى إدارته للعلاقة مع السوفييت، بل ومع معاونيه أيضاً».

د. عمرو عبد السميع: كيف كان موقف الاتحاد السوفييتى من فكرة عقد معاهدة التعاون والصداقة مع مصر فى يوليو ١٩٧١؟

د. مراد غالب: بعد أن قام السادات بحركة ١٥ مايو عام ١٩٧١ كان قلق كبير يعترى موسكو، وكانت فكرة عقد المعاهدة مع مصر هى امتحان القيادة الجديدة، فيما إذا كانت على استعداد للمضى فى علاقة التحالف مع روسيا.

والكلام عن مجموعة على صبرى بوصفها مجموعة رجال موسكو فى مصر، هو كلام سخيف رددته بعض الدوائر فى القاهرة، إلا أن الاتحاد السوفييتى لم يكن ينظر اليهم بهذه الصيغة، وإنما - فقط- كانوا رجالَ الحكم فى مصر الذين

يُعرفون باتجاهاتهم.

د. عمرو عبد السميع: أكانت موسكو مهتمة فى ذلك الأوان بتصنيف رجال الحكم فى مصر؟

د. مراد غالب: طبيعى... هذا ليس شيئا قاصرا على الاتحاد السوفييتى، فهكذا الإنجليز، وهكذا الفرنسيين والأميركان.

د. عمرو عبد السميع: ألم تر موسكو أن رجال الحكم الذين تحسبهم متحمسين للعلاقات المصرية - السوفيتية من مجموعة على صبرى ليس لهم أية أرضية جماهيرية فى مصر؟

د. مراد غالب: موضوع الشعبية أو الجماهيرية ينبغى النظر إليه بطريقة أخرى، فالمسئول وهو فى الحكم له شعبيته الضخمة أما وهو خارج الحكم فالموضوع يختلف، وانظر إلى السادات نفسه لقد حقق شعبيته وهو فى الحكم ولكن لدى طبقات وشرائح معينة.. وهكذا.

د. عمرو عبد السميع: كيف كان رد فعل السادات لطلب موسكو عقد المعاهدة؟

د. مراد غالب: حين جلس الرئيس نيكولاى بادجورنى - وجهاً لوجه - أمام السادات على مائدة المحادثات فى القاهرة فى يوليو ١٩٧١، كانت أولى كلماته هى أنه يحمل طلب اتحاد الجمهوريات السوفييتية الاشتراكية بعقد معاهدة تعاون وصداقة مع مصر، وبُهت السادات وإن كان واصل استماعه لبادجورنى وهو يهز رأسه، وأحس بأن السوفييت غير مطمئنين إليه بعد حركة مايو ١٩٧١ التى أقصى فيها على صبرى ورجاله.

وفى مداولات الوفد المصرى عقب جلسة المحادثات الأولى، بدا السادات غاضباً جداً من الطلب السوفييتى، ونظر لى طالباً التعليق، فقلت له: «يا ريس هذا امتحان.. ولا بد أن ننظر إليه على هذا الأساس، لأن هذه المعاهدة بين قوة عظمى ودولة صغيرة هى عمل غير متكافىء، إلا أنه يعكس عدم اطمئنان موسكو»، ووافق السادات.

وبالطبع حدثت ردة فعل سلبية فى مصر لعقد هذه المعاهدة، حتى أننى اضطررت إلى إلقاء محاضرة فى المخابرات العامة المصرية بدعوة من المشير أحمد إسماعيل الذى كان مشرفاً على الجهاز وقتها، أمام مجموعة من السفراء المصريين فى محاولة للتفسير.

وفى محاضرتى قلت: «إذا شققتم قلبى فأنا ضد هذه المعاهدة تماما، ولكن ماذا نفعل؟ ليس لدينا مخرج آخر، وليس لدينا مصدر آخر للتسليح، وليس لدينا وسيلة أخرى لإدارة صراعنا مع إسرائيل سياسياً وعسكرياً».

د. **عمرو عبد السميع**: ولكن على الرغم من عقد هذه المعاهدة غير المتكافئة بناء على طلب الاتحاد السوفييتى، فقد ظلت العلاقة بين موسكو والسادات تسودها شكوك كبيرة.. لماذا؟

د. **مراد غالب**: الشكوك كانت أكبر جداً من جانب السادات، وفى جلسات محادثات مع السوفييت كان يتحدث إليهم بمنتهى العصبية والعنف، حتى أن أحد معاونى بريجنيف قال لى: «نحن غير معتادين على ذلك، لقد كنا نجلس إلى عبد الناصر ونتحاور حوار الند للند، بكلام واضح وبروح الجنتلمان.. ولكن يبدو أن المسألة اختلفت الآن»؟

د. **عمرو عبد السميع**: ألم تكن هناك ضرورة لانفعال السادات وغضبه على السوفييت؟

د. **مراد غالب**: إطلاقاً، لقد بدا كمن يريد أن يفتعل خلافاً.

د. **عمرو عبد السميع**: لكن الرئيس السادات كان جزءا من القيادة الحاكمة أيام عبد الناصر وحضر معه جلسات محادثات كثيرة مع السوفييت، فهل كان أداؤه وقتها بنفس العصبية التى تتكلم عنها؟

د. **مراد غالب**: أبداً، لقد كان لطيفا للغاية، حتى أن عبد الناصر عينه مسئولا عن الاتصال مع الجانب السوفييتى فى مصر، بوصفه من أكثر رجاله حماساً للعلاقات المصرية - السوفييتية، ومن أكثر رجاله لطفاً مع الجانب السوفييتى.

وعندما كان السادات رئيسا لمجلس الأمة (برلمان الوحدة أيام عبد الناصر) قام بزيارة لموسكو، وهناك بادره نيكيتا خروشوف رئيس الوزراء وزعيم الحزب الشيوعى بمحاضرة طويلة عن أكذوبة الوحدة العربية وأكذوبة القومية، من زاوية نظرية أيديولوجية ماركسية، واستمع السادات لهذا الكلام دون أن ينبس ببنت شفه، ثم بعد أن عاد إلى القاهرة، أُبلغ فى المطار أن الرئيس عبد الناصر يود أن يراه فوراً، وبمجرد أن دخل أنور السادات على عبد الناصر، فوجىء بأنه يعلم كل شىء عما قاله خروشوف له، وعنفه تعنيفاً شديداً لأنه لم يرد، موضحاً أن الكياسة لا تكون فى مثل هذه الأمور!!

وبعد هذا اللقاء العاصف شكا لى السادات قائلا: «وماذا كنت أفعل.. لقد كان فى جيبى طلبات تسليح، ولو أحدثت توتراً ربما ما كنت حصلت على موافقة».

فأجبته: «كان من الممكن أن ترد بحزم دون إثارة أزمة، فالرئيس عبد الناصر نفسه - عند اللزوم - كان يدخل معهم معاركَ عنيفة».

د. عمرو عبد السميع: منذ عقد المعاهدة فى يوليو ١٩٧١، وحتى طرد الخبراء السوفييت فى يوليو ١٩٧٢ ما هى النقاط التى مثلت الخط البيانى الصاعد فى تأزم العلاقات المصرية - السوفييتية؟

د. مراد غالب: السبب المعلن أو المحطة النهائية، كان تلكؤ السوفييت فى الوفاء بطلبات تسليح مصرية.

ولكن ما أدى إلى هذا - من وجهة نظرى - كان سلسلة طويلة من الأحداث، بدأت بمساندة مصر للرئيس السودانى جعفر النميرى فى مواجهة انقلاب هاشم العطا الذى قام به الشيوعيون بحيث بدأنا نُؤخذ فى نظر السوفييت بصورة النظام الذى يحارب الشيوعية فى المنطقة. وليس فى مصر، وأذكر بعدها أننى التقيت مع الرئيس أنور السادات قبل طرد الخبراء بفترة وجيزة وبادرته قائلا: «يا ريس لن أتحدث فى موضوع موسكو، ولكننى سأتحدث فى موضوع مصر، فمعظم الأجهزة المصرية الآن يسيطر عليها رجال ليسوا متحمسين

للعلاقات المصرية - السوفييتية، وعلى العكس فهم يجاهرون بضرورة تجميد هذه العلاقات ووقفها، فكيف يكون هذا هو وضعنا ثم نطلب مزيداً من الأسلحة، وحين يتلكأ السوفييت نبدأ فى الهجوم عليهم».

وهنا رد السادات بانفعال واضح: «يا مراد أنت لا تعرف، لقد أصبح الأمن القومى المصرى فى خطر، الروس كانوا مع الأولاد الذين وضعتهم فى السجن (يقصد مجموعة على صبرى)».

وشعرت ألا فائدة، فالسادات ما زال يشك فى وقوف السوفييت خلف خصومه السياسيين، وذلك على الرغم من أنه الذى كسب المعركة، ووضع الأولاد - على حد تعبيره - فى السجن.

وللتدليل على صحة وجهة نظرى، فقد استقبل الرئيس اليوغوسلافى الراحل چوزيب بروز تيتو وفداً رئاسياً مصرياً بقيادة السادات فى مطلع عام ١٩٧٥ فى بيوجراد، وبادر السادات قائلا: «لا بد أن تحسن علاقاتك مع السوفييت، أنظر.. لقد أنشأوا فى يوغوسلافيا تنظيماً شيوعياً يعمل ضدى، ووصل الأمر إلى تشكيل لجنة مركزية، يعنى يريدون قلب نظام الحكم، ومع ذلك ظلت علاقتى بهم قائمة، لا بد أن تكون لك علاقات مع الولايات المتحدة الأميركية، ولا بد أن تحسن علاقاتك مع موسكو».

واستخدم الرئيس تيتو تعبير TWO RODS أو القضيين اللذين يستخدمهما الحداد فى الإمساك بشىء ساخن لوصف ضرورة العلاقة المتوازنة مع القوتين الأعظم.

د. عمرو عبد السميع: وكيف استقبل السوفييت قرار السادات بطرد الخبراء من مصر؟

د. مراد غالب: هذه كانت - بالنسبة لهم- كارثة، وأذكر أن الدكتور عزيز صدقى رئيس الوزراء المصرى قام بعدها مباشرة بزيارة موسكو، وحضرت معه جلسة المحادثات مع ليونيد بريچنف، الذى استقبلنا والدموع فى عينيه وقال:

«ماذا فعلنا بكم.. حتى تتسببوا لنا فى كل هذا، نحن حاربنا معكم، وامتزجت دماء جنودنا بدماء جنودكم، لقد كنا نخفى موتانا عن أعين الشعب السوفييتى، ونستقبل جثث جنودنا ليلاً حتى لا يدرى أحد، وحتى نستطيع أن نواصل دورنا تجاهكم.. نحن بنينا لكم السد العالى.. نحن ساعدناكم فى أن تصبحوا دولة صناعية».

كان بريجنيف فى أشد حالات الألم.. وبعد أن انتهى من كلمته ران على قاعة المحادثات سكون تام.

د. عمرو عبد السميع: كيف واجه عزيز صدقى الموقف؟

د. مراد غالب: كان الدكتور عزيز رجلاً «متفهماً» جداً لطبيعة العلاقات المصرية - السوفييتية فقد كان وزيراً للصناعة لسنوات طويلة، ويعلم حجم المساعدة الروسية لمصر، وقد قال كلاماً معناه: إنه جاء لكى يعطى دفعة جديدة تؤدى لاستمرار العلاقات واستمرار التعاون مع موسكو.

د. عمرو عبد السميع: هل كان كلام عزيز صديقى بمبادرة شخصية منه؟

د. مراد غالب: بالقطع لا.. فعلى الرغم من أن السادات قام بإجراء طرد الخبراء إلا أنه كان حريصاً على استمرار العلاقة الطيبة مع السوفييت لأنهم ما زالوا - حتى هذا الوقت- مصدر مساندة مصر الوحيد.

د. عمرو عبد السميع: وصولا إلى حرب ١٩٧٣ كيف استمرت العلاقة مع السوفييت بعد طرد الخبراء؟

د. مراد غالب: قام السادات بتعيينى وزيرا للخارجية من أواخر سبتمبر ١٩٧١ إلى سبتمبر ١٩٧٢، أى أنه أخرجنى من الوزارة بعد طرد الخبراء بشهرين تقريبا، وبعدها بدأ يتحرك مع الأميركان، وأرسل حافظ إسماعيل مستشاره لشئون الأمن القومى ليلتقى مع هنرى كيسنجر فى زيارة سرية إلى باريس، ولأن حافظ إسماعيل رجل نظيف ووطنى وأمين فلم تسر الأمور مع كيسنجر وقتها وفق ما يريد، وهنا أعادنى السادات مرة أخرى إلى مقعد وزير الخارجية وقام

بتعيين بعض الوزراء من اليساريين المصريين البارزين (للمرة الأولى منذ الثورة) مثل الدكتور فؤاد مرسى والدكتور إسماعيل صبرى عبد الله، وذلك لطمأنة السوفييت ومحاولة إعادة المياه إلى مجاريها!!

الموضوع بالنسبة إلى السادات كان تكتيكات صغيرة وللكثير منها طابع شخصى ومزاجى.

د. عمرو عبد السميع: كيف عينك السادات وزيرا للخارجية أصلاً؟

د. مراد غالب: رشحنى له مجموعة من المستشارين حوله، فأبدى حماساً شديداً وفورياً، وعندما اتصل بى لإبلاغى، شعرت أن هذه نهاية العلاقات المصرية - السوفييتية.

د. عمرو عبد السميع: لماذا شعرت بذلك، رغم أن تعينك وزيرا - وأنت واحد من مهندسى العلاقات المصرية السوفييتية - يعتبر تدعيما لهذه العلاقات وليس إنهاءً لها؟

د. مراد غالب: شعرت بأن السادات لم يكن يريد تعيينى وزيراً، بقدر ما كان يريد إبعادى عن موسكو، ولذلك خرجت من روسيا بأسرع ما يمكن، وبعد سنوات التقيت مع بعض المسئولين الأميركان من ضمنهم أحد السفراء الأميركيين فى مصر فسألونى: «لقد رصدنا خروجك السريع جداً من موسكو.. فكيف أحست بهذه الفورية أن العلاقات على وشك الانتهاء؟!».

وأجبت: «اسألوا الرئيس السادات»، فقد كان واضحا لى تماما أنه منذ جاء للحكم يتحرك تحركاً مقصوداً لضرب العلاقة مع السوفييت والاتجاه للأميركان.

د. عمرو عبد السميع: فى هذا التوقيت - أيضاً - دخل الرئيس السادات فى مجموعة من المواجهات الداخلية، واحدة منها كانت غير مفهومة لى لأنها كانت ضد الخط الذى يتبناه فى العلاقة مع الاتحاد السوفييتى، وهى المواجهة مع الفريق أول محمد صادق وزير الحربية السابق الذى كان ضد العلاقات المصرية - السوفييتية أيضاً، فلماذا اصطدم به وهو يمثل نفس الخط؟!

د. مراد غالب: عندما قرر السادات طرد الخبراء، زارنى الفريق أول محمد صادق وزير الحربية، وهو صديقى وبلدياتى من محافظة الشرقية وقال لى: «الدور عليّه»!!

محمد صادق كان يلعب دائما بكارت أن الوجود السوفييتى هو إقلال من شأن العسكرية المصرية، ولا بد من إنهائه، فلما قام أنور السادات بطرد الخبراء، كان هذا بمثابة سحب للسجادة من تحت قدمى محمد صادق الذى كانت القوات المسلحة تلتف حوله، وهو أمر لم يكن السادات يريده بعدما تخلص من الوجود السوفييتى.

د. عمرو عبد السميع: هل أثر كل هذا على استمرار الدعم العسكرى السوفييتى لمصر وصولا إلى معركة ١٩٧٣؟

د. مراد غالب: كان السوفييت - على الرغم من كل شىء - حريصين للغاية على استمرار العلاقة حماية لمصالحهم الاستراتيجية، وكانوا قبل طرد الخبراء بثلاثة أشهر أى فى أبريل وافقوا على مطلب السادات بمنح مصر سلاحاً للردع - وهو هاجس مزمن - طرحته القيادة العسكرية فى مصر من أيام عبد الناصر، وعلى الرغم من أن بريچنيف قال للسادات أثناء زيارته إلى موسكو فى أبريل: «إن الاتحاد السوفييتى لا يود تصعيد سباق التسلح لأن ذلك سيزيد من احتمالات المواجهة مع الأميركان، وعلى الرغم من هذا فنحن نفكر فى إعطائكم صاروخا (أرض - أرض) سيمثل سلاحاً رادعاً تماماً تستطيعون الاعتماد عليه».

كان هذا هو الصاروخ الذى عرف أثناء حرب الخليج باسم «سكود» واسمه الروسى (أوجا).

ولكن بريجنيف شرح للسادات أن الإشكال فى هذا الصاروخ أنه محمل برأس نووية، ويحتاج إلى وقت لتغيير رأسه برأس تقليدية بوزن مخالف، وبالتالى يجرى الفنيون الروس تجاربَ عليه لتغيير (الإيروداينامك) الخاص به.

ومن هنا كان ذهولى حين قرر السادات طرد الخبراء، لأننى تصورت أن هذا

سيمنع السوفييت من منح مصر سلاح الردع. وبخاصة أنه كان يصرح لمعاونيه فى هذه المرحلة بأنه «سيمح السوفييت مسحاً من المنطقة»!!

إلا أن السوفييت - برغم كل شىء - منحوا مصر سلاح الردع واستمروا فى أداء دورهم حفاظاً على مصالحهم الاستراتيجية وما أسموه - وقتها - دورهم التاريخى.

د. عمرو عبد السميع: دعنا نرى أداء الرئيس السادات فى إدارته للعلاقة مع السوفييت بطريقة أخرى، ألم يكن ضغطه عليهم بطرد الخبراء، ثم بتهديده أن يمسحهم مسحاً من المنطقة وسيلة ناجحة لدفعهم للإسراع بتزويده بما يريد من سلاح حفاظاً على مصالحهم الاستراتيجية؟

د. مراد غالب: نعم.. ربما كان يقصد هذا، فقد كان يتعمد ترديد تهديداته للسوفييت أمام رجال مصريين أو عرب يعرف أنهم سينقلون هذا الكلام للقيادة السوفييتية.

د. عمرو عبد السميع: وماذا كان انطباع السوفييت إزاء الأداء المجيد للقوات المسلحة المصرية فى حرب ١٩٧٣؟

د. مراد غالب: كانوا فى قمة السعادة، وبدوا وكأنهم - أخيراً- ردوا الاعتبار للعسكرية السوفييتية والسلاح السوفييتى.

ولو تأملت ملامح أليكسى كاسيجن فى زيارته لمصر فى ١٥ أكتوبر ١٩٧٣ ستشعر فوراً أن الرجل بالغ السعادة.

أكثر من هذا قام كوليكوف رئيس أركان حرب الجيش السوفييتى والذى كان يصحب كاسيجن بتسليم السادات الصور التى التقطتها الأقمار الاصطناعية السوفييتية للتحرك الإسرائيلى لإحداث الثغرة، وطرح عليه فكرة ضرب مطار العريش الذى كانت تصل إليه الإمدادات الأميركية وتتحرك مباشرة تجاه نقطة المفصل بين الجيشين المصريين الثانى والثالث لإحداث الثغرة، ولكن السادات

رفض الفكرة، فاقترح عليه كوليكوف توجيه قصف مدفعى مصرى مركز إلى منطقة تحرك الإسرائيليين.

إلا أن السادات قرر استخدام سلاح الردع (صواريخ أوجا) بعدما بدأت الثغرة بالفعل.

ثم سارت الأحداث فى الطريق الذى رسمه السادات وبدا تماماً أن الدور السوفييتى انتهى فى المنطقة بعد اجتماع جنيف الذى حضره ممثلو الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى فى ديسمبر ١٩٧٣ لتنفيذ القرار ٣٣٨. . وظهر أن السادات يريد الحل أميركياً فقط.

obeikandl.com